

المزهر في علوم اللغة وأنواعها

العرب أفضل الأمم وَحَكْمَتُهَا أشرف الحكَم كفضل اللسان على اليد .

وكلام العرب نوعان : منظوم ومنتور لكل نوع منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ووردية فإذا اتفقت الطبقتان في القَدْر وتساوتا في القيمة ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية لأن كل منظوم أحسنُ من كل منتور من جنسه في معترف العادة ألا ترى أن الدُّرَّ - وهو أخو اللفظ ونسيبُهُ وإليه يقاس وبه يشبهُه إذا كان منظوماً يكون أظهر لحسنه وأصوَنَ له .

وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تَيَدَّدَ - دَ في الأسماع وتَدَدَ - حَرَجَ في الطباع ولم يستقر منه إلاّ المفرطة في اللطف فإذا أخذه سلْكُ الوَزْنِ وعقْدُ القافية تألفت أشْئَاتُه وازدوجت فرائده وأمن السرقة والغصب .

وقد أجمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثر وأقلُّ جيداً محفوظاً وأن الشعرَ أقلُّ وأكثر جيداً محفوظاً لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جَيِّدُ المنثور . وكان الكلامُ كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطَيِّبِ أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفُرسَانِهَا الأَنَجَادِ وسمحاتها الأجواد لتَهْزُرَ نفوسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض فعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم قد شَعَرُوا به أي فَوطنوا له .

وقال : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يُحفظ من المنثور عَشْرُهُ ولا ضاع من الموزون عشره .

فإن احتج أحد على تفضيل النثر على الشعر بأن القرآن منثور وقد قال تعالى : (وَمَا

عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْدِيغِي لَهُ) قيل له : إن [] بعث رسوله آية وحجة على

الخلق وجعل كتابه منثوراً ليكون أظهر برهاناً بفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحب من الكلام وتحديسي جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم

ذلك فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخُطبة

والمترسلين وليس بترسل وإعجازُ الشعراء أشدُّ برهاناً ألا ترى العرب كيف نسبوا النبي

الشعر لَمَّا غُلِبُوا وتبين عجزهم فقالوا : هو شاعر ! لَمَّا في قلوبهم من هيبة الشعر

وفخامته وأنه يقع منه ما لا يُلْحَقُ والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال تعالى : (وَمَا

عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْدِيغِي لَهُ) أي لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل